التصوف
بين الأصالة والاقتباس عند فقهاء المالكية
ابن جزي الغرناطي أنموذجا

الدكتور : خيرالدين سيب
جامعة تلمسان

الحمد لله الذي بنعمته تتّم الصالحات، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.أمّا بعد:

فقد تواتر النقل عن أغلب علماء المالكية في إثبات الصلة بين السلوك والعقيدة من جهة وبين السلوك والفقه من جهة أخرى، مما يبين عدم صحة التعميم الذي ذكره العلامة المربي سعيد حوّى –رحمه الله- في قوله» افتح الآن كتاب التوحيد وكتاب فقه فإنك لا تجد أي إشارة لقضية القلب وعلومه...لا تجد في هذه الكتب (العقيدة والفقه)أي تفصيل في باب القلب والنفس والشعور» [1].

ويدل ما تواتر النقل به عن علماء المالكية على هيمنة النظرية الوظيفية التطبيقية للدين الإسلامي على كثير من

فقهائهم،و قد عبروا عن تلك النظرة بالتلازم الدائم بين فقه مالك وطريقة الجنيد السالك.في إطار المذهب العقيدي السني في الأشاعرة.وقد بين أساطين المذهب ذلك التلازم في اعتدال وتوازن.ابتعدوا فيه –قدر الإمكان- عن البحث النظري التقعيري،وفق النسق المالكي المعروف برفض الفقه الافتراضي الذي لا ثمرة فيه وخاصة عند مالك بن أنس و الشاطبي.

وبغرض البيان العلمي لما ذكرناه آنفا، اخترنا الكتابة في موضوع التصوف بين الأصالة والاقتباس عند فقهاء المالكية « ابن جزي الغرناطي أنموذجا « بوصفه أحد أبرز علماء المالكية في الغرب الإسلامي [2].

عناصر البحث:

أولا:ابن جزي الغرناطي وعصره.

ثانيا:تحديد المراد بالسلوك والتصوف عنده.

ثالثا:الكشف عن المصادر التي استقى منها وبيان صلته بالجنيد .

رابعا:الخاتمة.

أولا : ابن جزي الغرناطي وعصره:

أ- الاسم المولد والنشأة:

هو محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن جزي الكلبي الغرناطي يكنى بأبي القاسم ولد في 19/ 03/ 693 هـ (1294م) سليل بيت علم ورئاسة وتدبير،فقد كان لجده يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف رئاسة وانفرادا في تدبير الملك بمدينة حيّان الأندلسية[3].

ب- شيوخ بن جزي الغرناطي:

تتلمذ الشيخ على أئمة عصره في علوم القراءات، والتفسير، والعربية، والفقه وغيرها من العلوم الشرعية ونذكر منهم :

1-أبو جعفر بن الزبير الغرناطي

2-محمد بن أحمد بن داود أبو عبد الله اللخمي الأندلسي المعروف بابن الكماء

3-محمد بن عمر[4]. (11) الفهري السبي المعروف بابن رشيد والمكنى بابي عبد الله

4-قاسم بن عبد الله بن محمد بن الشاط الأنصاري يكنى بابي القاسم

5-محمد بن أحمد بن يوسف بن أحمد بن عمر الهاشمي الطنجاني المكنى بأبي عبد الله

ج-منزلة ابن جزي ومصنفاته:

ج1: منزلته: تبين مما ألمحنا إليه من أسماء بعض شيوخه أن ابن جزي ينبغي أن يكون شخصية علمية جامعة موسوعية لما أحاطته به العناية الإلهية من ظروف حسنة سواء أكان على مستوى الأسرة أم على مستوى المجتمع، وقد كان كذلك، فقد كان مفسرا مبدعا و فقيها مبتكِرا، وأصوليا نحريرا، ولغويا وشاعرا فحلا.

وبهذا شهد له جل من ترجم له.قال عنه إسماعيل ابن الأحمر أحد أمراء بني الأحمر(ت807 هـ):»أبو القاسم محمد كان خطيب الجامع الأعظم بغرناطة وكان فقيها إماما عالما بجميع العلوم، محصلا،قارب درجة الاجتهاد ودّون وصنف في كل فن ...وكان أحد أهل الفتيا بغرناطة...» [5].

و يعضّد هذه الشهادة ما بقي لنا من آثاره العلمية المتنوعة.

ج2: مصنفات ابن جزي:

1- التفسير

* كتاب التسهيل لعلوم التنزيل

2-القراءات

* المختصر البارع في قراءة نافع

* أصول القراء الستة غير نافع

3- العقيدة و التصوف

* النور المبين في قواعد عقائد الدين

* ما يستحسن من الإشارات الصوفية

4- الحديث و الأذكار

* وسيلة المسلم في تهذيب صحيح مسلم

* الأنوار السنية في الكلمات السنية

* الدعوات و الأذكار المخرجة من صحيح الأخبار

5- الفقه و أصوله

* تقريب الوصول إلى علم الأصول.

* القوانين الفقهية و التنبيه على مذهب الشافعية و الحنفية و الحنبلية

6- التراجم

* فهرسة كبيرة اشتملت على جملة من تراجم علماء المشرق و المغرب.

* الفوائد العامة في لحن العامة.

ليس هذا فحسب، بل ترك آثارا مجسدة في تلاميذ نجباء حملوا ميراث شيخهم و طوروه

وأضافوا إليه ما فتح الله به عليهم.

د- التلاميذ

1- محمد بن محمد بن يوسف بن محمد الأنصاري الغرناطي المكني بأبي القاسم بن الخشاب

2- أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد ابن جزي الغرناطي

3- لسان الدين بن الخطيب أبو عبد الله محمد بن عبد الله السلماني الغرناطي

4- أبو بكر أحمد بن محمد بن جزي الغرناطي

5- أبو محمد عبد الله بن محمد بن جزي الغرناطي

6- أبو عبد الله بن قاسم بن أحمد ابن إبراهيم الأنصاري المعروف بالشديد

هـ - وفاة ابن جزي

كان الشيخ ابن جزي يعيش آمال و آلام أمته في الغرب الإسلامي، يتبين ذلك من أقوال العلماء، و ما بقي لنا من آثاره المكتوبة، و من كان هذا شأنه لا يدخر جهدا للتضحية بالغالي والنفيس في سبيل الله بغرض إنقاذ أمته من فساد واقع أو متوقع.

قتل شيخنا شهيدا بطريف حينما كان يحرض المسلمين ويقوي ساعدهم ويثبت أفئدتهم بغرض دفع ظلم الظالمين وفساد المفسدين وكان ذلك يوم الإثنين السابع من جمادى الأولى سنة 741 هـ

ثانيا: السلوك والتصوف عند ابن جزي :

تنوّعت تعريفات مصطلح التصوّف في ثراتنا الثقافي وانتقل الاهتمام بهذا التنوّع حينا آخرا إلى الدارسين المعاصرين , فحاولوا الحسم في مسألة اشتقاق الاسم هل هو من الصفاء أو الصفو أو التصفية أو من المصطلح اليوناني فيلا صوفيا؟

واشتغلوا بذلك عن لب الموضوع نفسه جيلا بعد جيل، إلا أن شيخنا ابن جزي الغرناطي أعرض عن التعلّق بالتشقيق والتنميق اللفظيين وانتقل مباشرة إلى لب الموضوع وذروة سنامه مركزا – على وفق النسق المالكي – في تعريفه على الثمرة المرجوّة من هذا العلم بعد بيان منزلته في العلوم الإسلامية عامة.

إن التصوّف عنده ينخرط في سلك الفقه لأنه في الحقيقة فقه الباطن كما أن الفقه يتعلّق بأحكام الظاهر، ولهذا التصوّر تعلّق بالقرآن لما ورد في القرآن من المعارف الإلهية ورياضة النفوس، وتنوير القلوب، وتطهيرها باكتساب الأخلاق الحميدة واجتناب الأخلاق الذميمة .

والتصوف على هذا النحو يعد صورة طبق الأصل لما قرره سلف الأمّة من الصحابة والتابعين قال ابن خلدون : « وأصله (التصوّف أو السلوك) ... أن طريقة هؤلاء القوم المتصوفة (أو الزهاد) لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، طريقة الحق والهداية و أصلها العكوف على العبادة و الانقطاع إلى اللّه تعالى» وطريقها كما بيّنه ابن خلدون نفسه «الإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من الخلوة للعبادة وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف»[6]..

ومن كان التصوّر عنده على هذا الشكل فهو مرادف لمصطلح (السلوك) لابد من تلمّس مصادره ومصطلحاته تأصيلا وتعريفا وتحديدا في المصادر الإسلامية الأصلية :

1- الكتاب الكريم

2- السنة المطهرة الصحيحة

3- الإجماع

4- أقوال الصحابة وأعمالهم

5- أقوال السلف وأعمالهم بصفة عامة

6- يلحق بذلك الخبرة الصوفية سواء كانت عامة أو خاصة

ثالثا : مصادر التصوّف عند ابن جزي:

المصدر الأول القرآن الكريم:المصدر الأساس للمقامات الصوفية والأحوال عند ابن جزي هو القرآن الكريم بوصفه أصل الأدّلة وأقواها، خاصة وهو المكتوب في المصاحف، المنقولة إلينا نقلا متواتر بالقراءة المشهورة.

فاعتبر من جرّاء ذلك آية تربوية صوفية كل الآيات التي تذكر التوبة و الورع و الزهد والصبروالشكر والخوف والرجاء والتوكل والرضا والمحبة أو نبّهت إلى منزلة «الاستقامة والذاكرين أو المستغفرين أو أولي الألباب..» [7]..[46]

يبين هذا الرأي تأصيله لكثير من المقامات والأحوال المشار إليها في البحث، فجعل من القرآن الكريم عمدته في تقرير تلك الأحوال و المقامات والتفصيل في نشأتها منها على سبيل المثال لا الحصر استدلاله على أن توكل أعلى المقامات بالقرآن

الكريم فقال: وهو «التوكل من أعلى المقامات لوجهين أحدهما: قوله تعالى: «إن الله يحب المتوكلين»[8].

الآخر: الضمان الذي في قوله تعالى: «و من يتوكل على الله فهو حسبه»[9].

وقد يكون واجبا لقوله تعالى: « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين»[10] . ، فجعله شرطا في الإيمان[11]. [47]

ونسج على وفق النفس نسق في سائر المقامات والأحوال، إلا أنه لم يجار صوفية في جميع ما ورد عنهم، فتميز تأصيله بالاعتدال و التوازن، إذ بالرغم من قوله باحتواء القرآن الكريم للمعارف الإلهية والإشارات الصوفية فقد اتخذ موقفا نقديا ظاهرا من التفسير الصوفي للقرآن الكريم، فقدم ما حقه التقديم وأخر ما منزلته التأخير و أجاد فقال: «وقد تكلمت الصوفية في تفسير القرآن، فمنهم من أحسن وأجاد، و وصل بنور بصيرته إلى دقائق المعاني، و وقف على حقيقة المراد، ومنهم من توغل في الباطنية و حمل القرآن على ما لا تقتضيه اللغة العربية[12]. [48]، واستشهد على صحة ما ذهب إليه بما أورد عبد الرحمان السلمي[13]. [49] في كتابه:» الحقائق» تقييما لجهود الصوفية في

التفسير قال: قال بعض العلماء:بل هي كتاب الحقائق، البواطل قال الشيخ ابن جزي: ولو انصفنا لقلنا فيه حقائق وبواطل[14]. [50].

إن الاهتمام بالتأصيل القرآني للتصوف العلمي طريق المحدّثين و خاصة الإمام الجنيد [15]. (51) الذي صرحت المالكية بتبني طريقته،حيث نقل عنه: «من لم يحفظ القرآن و لم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب و السنة» [16]. (52) .

وقال أيضا: «كتابنا هذا -يعني القرآن- سيد الكتب وأجمعها: وشريعتنا أوضح الشرائع وأدقها، وطريقتنا (التصوف)....مشيّدة بالكتاب والسنة فمن لم يقرأ القرآن ويحفظ السنة و يفهم معانيها لا يصح الإقتداء به».[17]. (53)

المصدر الثاني: السنة المطهرة و الحديث القدسي:

يقصد بهما ابن جزي ثلاثة أنواع: قول النبي صلى الله عليه وسلم و فعله و إقراره [18] (54) كما يلحق بها صفاته الخَلقية والخُلُقية مع التركيز على الجانب الخلقي التعبدي من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم لأنها أهم ما يلتمس منه هذا

الجانب: أليست حياة محمد صلى الله عليه وسلم ...بما فيها من تحنث و خلوة واكتفاء بالقليل من الزاد صورة أولى للحياة التي كان يحياها الزهاد و العباد والصوفية بعد ذلك.. أليس.. التأمل الذي كان يمعن فيه النبي صلى الله عليه و سلم و يغيب فيه كل شيء.. أساسا لهذه الأذواق والمواجيد... ولما يعرض فيها لسالك طريق الله من غيبة.. وفناء «[19] (55).

وقد جعل ابن جزي السنة أصلا ثانيا لما قرره من آراء وإشارات صوفية وأكبر شاهد على ذلك ما أورده من أحاديث نبوية في مجموع جهوده التأصيلية للتصوف، منها على سبيل المثال ما ذكره في ثنايا تفصيل مقام الذكر حيث قال مستشهدا بالحديث القدسي: «إن للذكر مزية وليست لغيره، وهي الحضور في الحضرة العلية، و الوصول إلى القرب بالذي عبر عنه ما ورد في الحديث من المجالسة و المعية، فإن الله تعالى يقول: «أنا جليس من ذكرني» و يقول: « أنا عند ظن عبدي بي و أنا معه حين يذكرني».

كما استشهد لأفضلية الذكر بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها

في درجاتكم و خير لكم من إنفاق الذهب والورِق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، و يضربوا أعناقكم، ذكر الله»[20]. (56)

«لا يموتن أحد منكم إلا و هو يحسن الظن بالله تعالى»[21] (57)

والأمثلة على ذلك كثيرة يحول بحثنا الجزئي دون إحصائها وعدها.

يعد التأصيل بالسنة للتصوف عند ابن جزي امتدادا للتأصيل بالسنة عند الجنيد و تمثلا لقول المالكية: «طريقنا طريق الجنيد السالك» وورد عنه تأكيدا لما ذهبنا إليه: «من لم يحقظ السنة و يفهم معانيها لا يصح الإقتداء به»[22] (58) و نقل القشيري قوله: «من لم يكتب الحديث لا يقتدي به في هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة» وقال: «علمنا هذا مشيّد بحديث رسول الله صلى الله عليه و سلم[23] « (59) وقال أيضا:»الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلّم و اتبع سنته،

ولزم طريقته، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه»[24].(60).

المصدر الثالث: الإجماع:

الإجماع اتفاق العلماء على حكم شرعي، وهو أصل ثالث بعد الأصلين السابقين من حيث الحجية. إذ يعتبر عند جمهور الأمة، و إجماع كل عصر حجة [25] (61) و من التفصيل الأخير يتضح «أن ابن جزي يعتبر الإجماع مصدرا أساسيا للمقامات والأحوال الصوفية. كما يعتبر في ذات الوقت معيارا ضروريا لقبول الرأي الصوفي المصرح به، فكل ما عرض للنفس والقلب ينبغي عرضه على إجماع المسلمين فإن خالفه وجب اطّراحه وعدم الالتفات إليه، لأن الأصل في التصوف –على وقف نسق المتقدمين– الجمع لا التفريق، و هو ما تؤكده الأدبيات الصوفية عبر التجربة التاريخية الطويلة، مقتفين آثار الصحابة في إجماعهم على تلك الحقائق عمليا. فقد كانت «حياة الصحابة حياة الخوف و الرجاء، حياة التهجد و البكاء، استمعوا إلى القرآن الكريم خاشعين متصدعين، و كانوا مزيجا من السادة والعبيد، ومن الأغنياء و الفقراء، و لكنهم كان يجمعهم هدف واحد، ومظهر نفسي واحد[26] (62) فكانوا رهبانا بالليل فرسانا بالنهار.

قال الشيخ ابن جزي في التأصيل للتصوف بالإجماع: «وإجماع الأمة دال على مقام التوبة، ووجوبها على كل مؤمن مكلف» [27] (63).

وأبرز من يعتد بإجماعهم في التأصيل للتصوف الصحابة وكبار التابعين بوصفهم إما عايشوا نزول الوحي، أو عايشوا النفوس التي زكاها الوحي الإلهي و رباها رسول الله صلى الله عليه وسلّم، و لا شك أن ابن جزي ناسج وفق النسق الصوفي عند الجنيد الذي يحتج بالإجماع حيث قال: «مذهبنا مقيد بالأصول الكتاب و السنة»[28] (64) فأشار بقوله الأصول إلى المصادر الأصلية الكتاب والسنة والإجماع والقياس ولرجوعهما إلى تلك المصادر من حيث الاعتبار و الاستدلال.

المصدر الرابع: الخبرة الصوفيةالعامّة:

اعتبر ابن جزي الخبرة الصوفية غير المناقضة لما حوته النصوص مصدرا من مصادر التأصيل للتصوف و مصطلحاته بصفة عامة، لهذا يُكثر من النقل عن علماء هذا الفن إذ ورد عنه الاستشهاد به بصيغ مختلفة منها قوله: (قال بعض الصوفية) أو إسناد القول إلى الصوفية جميعا و منها على سبيل المثال:

1- قوله: أحد الصوفية من قوله تعالى المحكي عن اليهود والنصارى «نحن أبناء الله و أحباؤه» ورد القرآن عليهم: «قل

فلم يعذبكم بذنوبكم». أن المحب لا يعذب حبيبه ففي ذلك بشارة لمن أحبه. [29] (65).

2- استنبط بعض الصوفية من قوله تعالى «استقاموا» (سورة فصلت، الآية30) فقالوا هو الإعراض عما سوى الله وهذه حالة الكمال على أن اللفظ لا يقتضيه[30] (66).

3- تسمى الصوفية مقام الفناء... الغيبة عن الخلق حتى أنه قد يغني عن نفسه أي يغيب عن ذلك باستغراقه في مشاهدة الله. [31] (67).

4- يستعمل مصطلح الإشارة الصوفية من مثل قوله: «إشارة صوفية: التوحيد نوعان عام و خاص، فالعام عدم الاشراك الجلي و هو مقام الإيمان الحاصل لجميع المؤمنين. والخاص عدم الاشراك الخفي و هو مقام الإحسان و هو خاص بالأولياء العارفين رضي الله عنهم»[32] (68).

5- قال بعض الصوفية لا يعرض أحد عن ذكر الله إلا أظلم عليه معيشته مستنبطة ذلك من قوله تعالى: «فمن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا» (سورة طه، الآية124) [33] (69).

المصدر الخامس: الخبرة الصوفية الخاصة:

نقل ابن جزي في ثنايا التأصيل للتصوف و مقاماته عن أساطين التصوف (العارفون بالله) إما بإسناد الأقوال إلى أصحابها، أو بالنقل دون عزو و يرجع ذلك في الغالب الأعم إلى تمكن أقوالهم (العارفون بالله الذين لم تعز أقوالهم إليهم) من المجتمع بصفة عامة إذ يصبح عزو تلك الأقوال إلى أصحابها في مثل تلك الحال أمرا غير ذي بال و هو ما ألمحنا إليه في الحديث عن التأصيل للتصوف عند الإمام الجنيد في مقام المقارنة و التأصيل.

من أبرز الشخصيات الصوفية التي استشهد بأقوالهم وأحوالهم عبد الله بن المبارك، و إبراهيم بن أدهم، و الفضيل بن عياض و المحاسبي، و القشري.

1) عبد الله بن المبارك[34] **(70)**: صاحب المنزلة المرموقة[35] **(71)** تميز بتغليب الجانب العلمي للزهد بوصفه سلوكا علميا لا نظرية معقدة[36] **(72)**.

استشهد ابن جزي بسلوكه حين سمع قوله تعالى: «ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوهم لذكر الله» (سورة الحديد، الآية

16) إذ كسر العود الذي أخذه ليضربه (مرحلة الصبا) و تاب إلى الله[37] (73).

2) إبراهيم بن أدهم: اشتغل بالعلم و الزهد فأسند الحديث و اختلف في تاريخ وفاته.

كانت أحواله و أقواله أشبه بأقوال الأنبياء وأحوالهم كأنه يستقي من مشكاة النبوة لهذا كانت منزلته سامية في الأمة جميعا على تنوع مشارب علمائها.

قال أبو الأحوص[38] (75): «رأيت خمسة ما رأيت مثلهم قط على رأسهم إبراهيم بن أدهم»، استشهد به ابن جزي في بيان فضل الفقر و الزهد في الدنيا فأسند إليه: «الفقراء إذا منعوا شكروا و إذا أُعطوا أثروا»[39] (76).

3) الفضيل بن عياض: كان عاكفا ورعا زاهدا مسندا للحديث[40] (77) ولد سنة 105 هـ و توفي في شهر محرم من سنة 187 هـ.

قال ابن مبارك: «إذا ذكرت الفضيل بن عياض ارتفع الحزن»[41] (78) و قال الفضيل عن نفسه «لو أن الدنيا بحذافيرها

عرضت علي ولا أحاسب بها لكنت اتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه.[42]»(79).

4) المحاسبي: أبرز شيوخ القوم وأبرز علماء المعاملات والإشارات ولد في البصرة سنة 105 هـ وكانت وفاته سنة 243 هـ[43] (80).

قال عنه القشيري: «عديم النظير في زمانه علما وورعا ومعاملة وحالا[44]» (81).

قال أبو نعيم: «كان لألوان الحق شاهدا ومراقبا ولآثار الرسول عليه السلام مساعدا و مصاحبا تصانيفه مدونة مسطورة وأقواله مبوّبة مشهورة وأحواله مصححة مذكورة كان في علم الأصول راسخا وراجحا». وأضاف واصفا لحال المحاسبي: «وعن الفصول جافيا وجانحا، وللمخالفين الزائغين قامعا وناطحا وللمريدين والمنيبين قابلا ناصحا» [45] (82).

استشهد به ابن جزي في التأصيل لمقام المحبة و أورد قوله: «المحبة تسلمك إلى المحبوب بكليتك ثم بإيثارك له على نفسك وروحك ثم موافقته سرا وجهرا ثم علمك بتقصيرك في حبّه.[46]»(83).

5) التّستري: أحد أئمة القوم وعلمائهم والمتكلمين في علوم الرياضات والإخلاص و عيوب الأفعال لم يكن له في وقته نظير المعاملات والورع ولد سنة 200 هـ واختلف في تاريخ وفاته 273 هـ أو 283 هـ أو 293 هـ [47] (84).

ذكر ابن جزي أقواله في ذم الهوى و خطورته على النفس البشرية حيث نقل عنه في تفسير قوله تعالى: «و نهى النفس عن الهوى» (سورة النازعات، الآية 40)، أنه لا يسلم من الهوى إلا الأنبياء و بعض الصديقين[48]» (85).

ويعضد -استشهاده بأقوال وأحوال الشخصيات التي أشرنا إليها-، رأينا الآنف الذكر والمتمثل في اهتمامه بالجانب السلوكي العملي وفق العقلية المالكية المغربية و يؤكد هذا ما نقل عن هؤلاء الأعلام في كتب التصوف فقد كانت النزعة الغالية عليهم الاهتمام بالسلوك والأخلاق بوصفهما العامل الأساس في الإصلاح[49] (85).

المصدر السادس: التفكر و الرياضة الروحية:

التفكر عند أهل السلوك تأمل قلبي وسيلته تخلية القلب من الشواغل كلها وهو ينبوع كل حال ومقام[50] (86) فمن تفكر في عظمة الله تعالى اكتسب التعظيم، ومنة تفكّر في قدرته. استفاد التوكل، ومن

تفكر في عذابه استفاد الخوف،ومن تفكّر في رحمته استفاد الرجاء ومن تفكر في الموت استفاد قصر الأمل، ومن تفكر في الذنوب و الخوف صغرت عنده نفسه [51] (87) وهكذا في سائر الأخلاق إلى أن يصفي قلبه عن ما سوى الله ويصفي قلبه لله في ذات الوقت لهذا قال الجرجاني عن التفكر:«سراج القلب يرى به خيره وشره ومنافعه ومضاره وكل قلب لا تفكر فيه فهو في ظلمات يتخبط.. وهو تصفية القلب بموارد الفوائد» [52] (88).

الخلفية المرجعية للمصطلحات:

رغم الحسم في الأرضية لمعرفية لموضوع المقامات والأحوال عنده إلا أن السؤال المطروح بحدة، هو ما مدلول المصطلحات الموظفة و ما هي خليفتها المعرفية؟

مرمعنا تحديد المراد بمصطلح التصوف عند ابن جزي[53] (89) إذ بالرغم من طروء المصطلح على البيئة الإسلامية إلا أن مدلوله عند ابن جزي محّض للحياة الروحية من حيث كونها تجربة إنسانية رائدة وليدة تفاعل النفس المتحررة من جميع الشوائب الثقافية والنص الإسلامي الصحيح، وهو بهذا قد اختار خلفيته المرجعية المتمثلة في تجربة الأجيال الأولى من الزهاد و العارفين بالله [54] (90).

أما بالنسبة لبقية المصطلحات فإننا سنقتصر على المصطلحات المحورية في تراثه الصوفي، و لكن قبل ذلك لابد من حديث إجمالي عن البناء المنهجي للمعارف الصوفية المتضمنة في المقامات نردفها ببيان المراد بتلك المصطلحات.

البناء المنهجي:

يختلف ابن جزي عن بقية الصوفية (على تنوع مشاربهم من حيث شكل البناء المعرفي للمقام الصوفي، إذ اختار له مسلكية عامة في الغالب الأعم يستهلها بالتعريف بالمقام و التأصيل له بناء على ما ورد في الأصول الإسلامية المعتبرة[55] (91) مع تجنب التأويل الباطني أو الاحتجاج بما ليس بحجة، [56] (92) ثم يردفها ببيان فضائل ذلك المقام على وفق ما حوته النصوص أولا، و التجربة الصوفية المقيدة بالكتاب و السنة و هدي السلف ثانيا يلحق بهما الدرجات والمراتب والمقام المبحوث، وينهي البحث فيه بالحديث عن منازل العامة والخاصة وخاصة الخاصة في ذلك المقام. ويورد بين الفنية والأخرى بعض المصطلحات الخاصة نحو المشارطة والمراقبة والمحاسبة والمعاقبة[57] (93).

الحال و المقام:

أ/ الحال: تنوعت تعريفات الصوفية للحال كتنوع علاقته بالمقام الصوفي، و لا يتأتى الخلوص إلى المطلوب كشفه إلا إذا حدد المراد به في تراث ابن جزي يردفه ببيان صلته بالخبرة الصوفية و خاصة بفقه الباطن عند الجنيد.

يرى ابن جزي أن الحال هو ملازمة العلم للقلب بحيث يغلب عليه و لا يغفل عنه [58] (94) فشرط الحال عنده العلم و لا يكفي العلم في تحقيق هذه الحال، و إذا حصل العلم و الحال حصّل الموصوف بهما الثمرة المنتظرة و خاصة الحياء[59] (95).

و يظهر على استعمال الشيخ المسحة الجنيدية حيث نقل عن الجنيد قوله: «الحال نازلة نزول بالقلب و لا تدوم[60]» (96) و يؤكد القشيري هذا المعنى بقوله: «الحال عند القوم معنى يرد على القلب من غير عمد منهم» [61] (97) و هو الرأي المتنبى به في غالب المدارس الصوفية العملية قال الجرجاني: «الحال عند أهل الحق معنى يرد على القلب من غير تصنع ولا اجتناب ولا اكتساب و على هذا تكون الأحوال مواهب... وتأتي من عين الجود [62] (98).

ومن ميزة الأحوال التحول و عدم الثبات قال بعض الشيوخ، الأحوال كاسمها يعني أنها تحل بالقلب تزول في الوقت و أنشدوا:

لو لم تحل ما سميت حال

و كل حال فقـــــــــد زالا

انظر إلى الفيء إذا ما انتهى

بأحد في النقص إذ طالا [63] (99)

سلم الأحوال:

مبدأ سلم الأحوال عند ابن جزي العلم [64] (100) و منتهاه بداية مرحلة المقامات [65] (101) قال ابن جزي: «مقام المراقبة شريف أصله علم و حام، ثم يثمر حالين:

الحالة الأولى: العلم: و هو معرفة الله لأن الله مطلع عليه، ناظر إليه يرى جميع أعماله، و يسمع جميع أقواله، و يصلح كل ما يخطر على باله.

الحالة الثانية: الحال نفسه و هو ملازمة هذا العلم بالقلب بحيث يغلب عليه و لا يفعل عنه[66] (102) .

وإذا داوم على حال ارتقى إلى أحوال أخرى فوق هذه و ألطف قال الأستاذ الدقاق: -رضي الله عنه- في معن قول النبي ﷺ «أنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله تعالى في اليوم سبعين مرة » [67] (103) أنه كان ﷺ أبدا في الترقي من أحواله فإذا ارتقى من حالة أعلى مما كان فيها فربما حصل له ملاحظة إلى ما ارتقى عنها... [68]» (104).

يحصل السالك بعد العلم و دخول طريق الأحوال الحب ثم حال المراقبة التي تتقدمها المشارطة و المرابطة و تتأخر عنها المحاسبة و المعاقبة بمعنى أن أول الأحوال بعد العلم حب ثم مشارطة، و مرابطة تتولد عنها مراقبة تنتهي بالمحاسبة و المعاقبة [69].

المصطلحات المحورية:

المشاركة: اشتراط العبد على نفسه بالتزام الطاعة و ترك المعاصي.

المرابطة: معاهدة العبد لربه على التزام الطاعة و ترك المعاصي.

المراقبة: معرفة العبد بإطلاع الله عليه على الدوام.

المحاسبة: الموازنة بين فترات العمر و ما حصل فيهل.

المعاقبة: زجر النفس عن شهواتها.

وصيغتها حب مقيد بالمشارطة و المرابطة ثم المراقبة، و بعدها تأتي المحاسبة، يحاسب العبد نفسه على ما اشترطه و عاهد عليه، فإن وجد نفسه قد أوفى بما عاهد الله عليه، حمد الله، و عن وجد نفسه قد حل عقد المشارطة، و نقض عهد المرابطة عاقب نفسه عقابا يزجرها عن العودة إلى مثل ذلك، ثم عاد إلى المشارطة و المرابطة و حافظ على المراقبة ثم اختبر نفسه بالمحاسبة و هكذا إلى أن يلقى الله سبحانه و تعالى[70].

ب/ المقام:

عند السالكين على صيغة اسم الظرف و هو الوصف الذي يثبت على العبد و يقيم عليه،و مقام العبد عند الله عز وجل ما اختاره بنفسه، فيكون مقامه بقدر ما يقوم به من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع عما سوى الله، والانقطاع إلى الله تباركت أسماؤهم[71].

قال القشيري: «المقام ما يتحقق به العبد بمنازلته من الآداب مما يتوصل إليه بنوع تصرف ويتحقق به بضرب تطلب ومقاساة تكلف فيقام كل أحد موضع إقامته عند ذلك»[72] ويقرر هذه الحقيقة جميع لصوفية وعبر عن ذلك الجرجاني بقوله: «المقامات مكاسب» [73].

وقد وظف ابن جزي لفظ المقام بما يوافق هذا الاصطلاح، يوضحه قوله: «المحبة الخاصة التي ينفرد بها العلماء الربانيون والأولياء والأصفياء من أعلى المقامات» [74] بمعنى أن تحققها وتمكنها من النفس هي أعلى المراتب كلها بشرط سكون النفس هي أعلى المراتب كلها بشرط سكون النفس بها وتملكها للجوارح.

سلم المقامات: يبدأ سلم المقامات عند ابن جزي بالتوبة فيعتبره أول المقامات السالكين و ذروة سنام تلك المقامات المحبة و بينهما مقامات كثيرة يترقى فيها السالك مقاما ... إلى أن يبلغ درجة الكمال فيها.

قال ابن جزي عن أعلى المقامات (المحبة): «أعلى المقامات و غاية المطلوبات، فإن سائر مقمات الصالحين، كالخوف

والرجاء، والتوكل وغير ذلك فهي مبنية على حظوظ النفس بخلاف المحبة فإنها من أجل المحبوب فليست من المعاوضة[75] ، والترقي من مقام إلى مقام أعلى وليد الرياضة الروحية والنفسية على وفق ما قرره أئمة هذا الفن. قال القشيري: وشرطه لا يرتقي من مقام إلى مقام آخر ما لم يستوف إحكام ذلك المقام فإن من لا قناعة له لا يصلح له التوكل، ومن لا توكل له لا يصلح له التسليم، و كذلك من لا توبة له لا تصلح له الإنابة، ومن لا ورع له لا يصلح له الزهد.. [76].

ج/ صلة الأحوال بالمقامات:

يبلغ السالك مرتبة المقام في سلوكه بعد مروره بمرحلة الحال المسبوقة بالعلم لأن بداية التخلق تكون حالا بعد علم ثم تصير مقاما مثل أن ينبعث من باطن العبد داعية المحاسبة ثم يؤول الداعية بغلبة صفات النفس ثم تعود ثم تزول فلا يزال العبد في مقام المحاسبة بعد أن كان له حال المحاسبة[77].

وهكذا دواليك في المراقبة والمشاهدة..وسائر الأحوال والمقامات قال القشيري: «صاحب المقام ممكن في مقامه وصاحب الحال مترق في حاله» [78].

رابعا: مقامات التصوف عند ابن جزي:

حدد ابن جزي أعلى المقامات و أدناها، دون أن يفصل فيما بينها، لأنه لم يكن يطمح إلى التنظير للتصوف في مجموع آثاره السلوكية بل كان جل اهتمامه التنبيه إلأى ما حواه الإسلام في المصادر الصحيحة من معارف إلهية تنير القلوب وتوجه السلوك وتصلح المجتمع.

لهذا لم يعن بترتيب المقامات –رغم تحديده لأعلاها وأدناها- على وفق نسق المتصوفة الخلص بل رتبها في تفسيره (التسهيل) حسب ورود أصولها في القرآن الكريم أما في (القوانين الفقهية) فقد رتبها في ثنايا سرده للمأمورات و المنهيات المتعلقة بالقلب و اللسان و المال.

و تتأكد الغاية المشار إليها بمقارنة ما ورد عنه في المقامات بما ورد عن القشيري في (الرسالة) أو المكي في (قوت القلوب) أو السهروردي في كتاب (عوارف المعارف) [79] (115)، إذ البون شاسع بين منظر للتصوف، و بين مستثمر لجهود السالكين و العارفين بالله، بتوظيفاتها التربوية حينا و التنبيه إلى قيمتها الإصلاحية حينا آخر، و نقدها و تمحيصها إن اقتضت الحاجة كما أشرنا إلى ذلك سابقا.

المقام الأول: الشكر.

المقام الثاني: التقوى في اللغة.

المقام الثالث: الذكر.

المقام الرابع: الصبر.

المقام الخامس: التوحيد .

المقام السادس:المحبة.

المقام السابع: التوكل.

المقام الثامن: المراقبة.

المقام التاسع و العاشر: الخوف و الرجاء.

المقام الحادي عشر: التوبة.

الخاتمة:

تبين لنا من هذه الدراسة الصلة الوثيقة بين فقه مالك وطريقة الجنيد السالك عند ابن جزي لعدم إمكان الفصل بين الفقهين لأنهما ضروريين لإيجاد الفعالية الحضارية المرجوة والمطلوبة.

إن الفعالية المنشودة وليدة الجمع الدائم للعلم و الأدب كما بيناه في مقامات السلوك، فمن ترقي في هذه المقامات كان في منتهى الأدب مع خلق الله جميعا، والأدب الذي تضمنه علم السلوك هو تأدب قبل التأديب، أي يجب أن يتحلى بها السالك في جميع شؤون حياته يشيع ذلك الأدب في المجتمع، لأن العلم إن سبق الأدب كان وبالا على صاحبه وعلى المجتمع كله، و من اجتمع فيه الأدب والعلم كان خيرا للمجتمع برمته.

ومما يجب لفت الانتباه إليه في هذا الشأن ضرورة بحث القضايا السلوكية أو البعد الصوفي لدى فقهاء المالكية، وخاصة شراح خليل، بغرض تمييز التصوف الصادق الفاعل من التصوف الفلسفي و النظري و تصوف النزهات و الخزعبلات و ما شاكل ذلك من البدع المنكرة شرعا و عقلا، و استثمار

تلك الجهود التربوية في صياغة جديدة لعلم السلوك بوصفه علم الأدب والتأدب والإصلاح النفسي الضروري للإقلاع الحضاري وقد عبر عن التصوف بهذا المعنى أبو بكر بن العربي في سراج المريدين بقوله:

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه
بكاؤك أن غنا المغنونا
ولا صياح ولا رقص ولا طرب
ولا تغاش كأن قد صرت مجنونا
و إن ترى خاشعا لله مكتئبا
على ذنوبك طول الدهر محزونا[80]

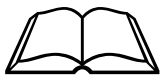

الهوامش

1- جولات في الفقهين الكبير و الأكبر **118** دار الأرقم-عمان- الطبعة الثانية **1401** هـ/ .**1981**

2-الغرب الإسلامي والأندلس

3-الإحاطة **3**/ **20**، أزهار الرياض **3**/ **185**، نفح الطيب **5**/ **514** غاية النهاية في طبقات القراء الابن جزي **1**/ **83**.

4-ذكر الأستاذ محمد علي فركوس في تحقيقه كتاب ابن جزي تقريب الوصول إلى علم الأصول ص **18** أن اسمه محمد بن عمرو بإثبات الواو و هو خطأ ظاهر إذ أن اسمه الكامل هو محمد بن عمر بن رشيد الفهري سواء في المصادر القديمة أو الحديثة.و انظر و غاية النهاية في طباقات القراء **2**/ **219**.

5-نثر الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان-إسماعيل بن الوليد الأحمر الغرناطي-ص:**165**

6-المقدمة ص:**863**

7-الطرق الصوفية في مصر / عامر النجار

8-سورة آل عمران **159**.

9-سورة الطلاق **3** .

10 سورة المائدة **23**.

11-التسهيل لعلوم التنزيل ابن الجزي الغلرناطي **1**/ **122**

12-المصدر السابق **1**/ **8**

13- محمد بن الحسين بين محمد بن المرسي بن خالد بن سالم ابو عبد الرحمن ولد بتاريخ العاشر من جمادى الآخرة سنة **325**ه و توفي سنة **412** ه صاحب المؤلفات المنقطعة المثال في التصوف منها طبقات الصوفية و الحقائق . انظر : المسوعة الصوفية عبد المنعم الحفي **205** , **207.50**

14- انظر التسهيل في علوم التنزيل 63 , 64 . النشار م.س 3/ 83 دراسات في التصوف الإسلامي محمد جلال شرف 35، .47

15- أنظر أقواله وترجمته في : الرسالة القشيرية 20،21. طبقات الصوفية السلمي 155،163

16- الرسالة القشيرية 20

17- تنبيه المغترين أواخر القرن العاشر على ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر الشعراني : 9، وأنظر مصادر التصوف في : الغني النابلسي حياته وأثاره لأستاذنا الدكتور علي معبد فرغلي 16،.18

18- تقريب الوصول تحقيق الأستاذ فركوس ص 116

19- الحياة الروحية في الإسلام / مصطفى حلمي ص 15

20- أخرجه أحمد في مسنده و الترمذي وابن ماجه و الحاكم في المستدرك .وأنظر الكنز الثمين في أحاديث النبي الأمين ، أبو الفضل عبد الله بن محمد بن الصديق الحسني 204.../ ...

21-التسهيل علوم التنزيل 2/ 35. أخرج الحديث عن جابر مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده وأبو داود في السنن وابن ماجه أنظر الكنز الثمين ، لابن الصديق 662

22- الشعراني المصدر نفسه .

23- الرسالة القشبرية 20

24- طبقات الصوفية السلمي 159 وصفة الصفوة / ابن الجوزي 2/ 236 , دراسات في التصوف الإسلامي / محمد جلال سرف 242/ 243

25- تقريب الوصول في علم الأصول 129

26- جراسات في التصوف الإسلامي / جلال شرف 55

27- التسهيل في علوم التنزيل 3/ .65

28- الرسالة القشيرية 20, دراسات في التصوف .423

29- التسهيل في علوم التنزيل 1/ 172،.173

30- المصدر نفسه

31- المصدر نفسه 1/ .66

32-القوانين الفقهية ابن جزري .12

33- التسهيل في علوم التنزيل 3/ 20

34- عبد الله بن المبارك بن واضح أبو عبد الرحمن ولد سنة 118هـ وتوفي سنة 181هـ . قال عنه أبو حاتم الرازي : من العلماء الجهابذة بخراسان ، وقال المروزي إسحاق بن محمد متحدثا عنه : لقد كان فقيها عالما عابدا زاهدا سخيا شجاعا.

35- أنظر الجرح و التعديل أبو حاتم الرازي 1/ 261 غاية النهاية في طبقات القراء لابن جزي 1/ 446 قال ابن الجزري / عنه قوله : طلب الأدب ثلاثين سنة . وطلبت العلم عشرين سنة.كانوا يطلبون الأدب ثم العلم أنظر المصدر السابق .

36- أبرز ما يوضح ذلك ما كتبه شعرا لابن علية بعد توليه القضاء .أنظر: ابن تيمية والتصوف – مصطفى حلمي 224،218 ،ونشأة الفكر الفلسفي في الإسلام – النشار-3/ 392،378

37-التسهيل في علوم التنزيل 4/ 97 ،98 و الرسالة القشرية

38- السلمي المصدر السابق 36 ، 37 من أقواله حين سئل عن عدم استجابة الله للدعاء فقال : يا أهل البصرة ماتت قلوبكم في عشرة أشياء عرفتم الله و لم تؤدوا حقه قرأتم كتاب الله و لم تعملوا به ، ادعيتم حب رسول الله و تركتم سنته أدعيتك عداوة الشيطان و وافقتموه قلتم نحب الجنة .

39- التسهيل في علوم التنزيل 1/ 32

40-الفضيل بن عياض بن مسعود انظر ترجمته الوافية في الرسالة القشرية 9، 10 الطبقات الصوفية.

41- القشيري المصدر السابق .

42- المصدر نفسه.

43- طبقات الصوفية **1/ 32** طبقات الشافعة السبكي، وفيات الأعيان لابن خلكان شذرات الذهب ابن عماد الحنبلي صفوة الصفوة / ابن الجوزي ، تاريخ بغداد الخطيب البغدادي، ميزان الاعتدال / الذهبي ، مرآة الجناة / اليافعي سير أعلام النبلاء / الذهبي و انظر مقدمة تحقيق العقل.

44- الرسالة القشري .**11**

45- حلية الأولياء / أبو نعيم **10/ 72-74**

46- التسهيل في علوم التنزيل **1/ 67** و يستحسن توجيه الباحثين إلى جميع أقواله المبثوثة في كتب الطبقات الصوفية و إنجاز دراسات بناء على ما ورد في كتبه : المسائل في أعمال القلوب و الجوارح و المكاسب و العقل. الوصايا والنجاح.

47-طبقات الصوفية **206**، الرسالة القشرية **15**

48- التسهيل في علوم في علــوم التنزيل **4/ 177** و طريقة إبراهيم بن أدهم : طريقة العمل و الأخذ بالأسباب مع المتوكل على الله تعالى . و طريق الفضيل بن عياض قوامها الخوف من الله و كان من خوفــه بادي الحزن و الغم. و سهل بن عبد الله ترى أساس طريقته المجاهدة و رياضة النفس و مراقبتها و مخالفتها.و جميع هذه المسالك المقيدة بأصول سبعة : التمسك بكتاب الله و الاقتداء بسنة الرسول صلى الله عليه و سلم، و أكل الحلال و كف الأذى و اجتناب الأثام والتوبة وأداء الحقوق .

49- المصدر نفسه.

50-سنشرحها في اللاحق.

51-القوانين الفقهية **284-285**

52- التعريفات للجرجاني .**45**

53-أنظر البحث في مصطلح التصوف/ النشار ج**3** ص **36**. النابلسي حياته و آراؤه ص **04**...

54- لهذا يستشهد الصوفية بسلوك الصحابة و كبار التابعين و طبقات الصوفية و مؤلفاتهم التربوية تؤكد ذلك.

55- الأصول الإسلامية- الكتاب و السنة و رجع إليها من مصادر.

56- و بهذا يخالف التصوف النظري الوجودي التصوف الفلسفي .

57-سنبين المراد بهذه المصطلحات لاحقا.

58 – التسهيل في علوم التنزيل 1/ .128

59-المصدر نفسه.

60- كشاف اصطلاحات الفنون. التهانوري 2/ .120

61- الرسالة القشيري 34

62- التعريفات الجرجاني ص 95 ، و كتاب عوارف المعارف السهر وردي 469 .

63- الرسالة القشيرية .35

64- التسهيل في علوم التنويل 1/ .128

65- المصدر نفسه.

66- التسهيل في علوم التنزيل 1/ 128 ، و القوانين الفقهي 284 .

67- أخرجه مسلم في صحيحه و أحمد في مسنده و أبو داود في سننه و النسائي في السنن.

68- أنظر الكنز الثمين لابن الصديق الحسني .181

69- التسهيل في علو م التنزيل 1/ 129

70- التسهيل في علو م التنزيل 1/ 129 ، القوانين الفقهية 284 و الإحياء للغزالي 4/ .393

71- التصوف الإسلامي زكي مبارك 2/ .118

72- الرسالة القشرية .34

73- التعريفات 85 .

74- القوانين الفقهية .287

75- التسهيل في علوم التنزيل 1/ 27

76- الرسالة 34.

77- عوارف المعارف السهروردي .469

78- الرسالة 34 ، التعريفات 35 كشاف اصطلاحات الفنون 2/ .119

79-أنظر المصادر المحال عليه سابقا.

80- المعيار المعرب الونشريسي 11/ 77-78.